

سيبويه في الميزان

للدكتور احمد مكي الأنصاري

قبل

أن أخوض في هذا الحديث المستفيض أبادر فأضع بين يديكم مبدأ راسخا .. ينبغي ألا نحيد عنه في دراستنا لسيبويه العظيم .. ذلك المبدأ هو :

يجب أن نقدر سيبويه كل التقدير .. ولكن ينبغي ألا نقدره أى تقديس .. وفرق كبير بين التقدير والتقديس :

ذلكم هو المبدأ .. وهذا هو المنطق الذى نطلق منه، فى رحلتنا الطويلة مع سيبويه .. وأظنكم توافقوننى على أن تقديس الأشخاص حرام .. حرام قطعاً ، شرعاً وقانوناً ونحواً وصرفاً .

والآن نبدأ فى وزن سيبويه .. وأشهد أننى لم أجد ميزانا واحداً يتسع لوزن سيبويه الضخم العملاق . وكيف تتسع له الموازين وقد طبقت شهرته الآفاق .. شرقاً وغرباً، عرباً وعجماً . فكان ملء السمع والبصر والفؤاد .. فى القديم وفى الحديث على السواء .

إن سمعة سيبويه العبرى تغزو الآن أوربا .. حتى أن كتابه الفريد يترجم إلى بعض اللغات الحية مثل اللغة الألمانية،

والإسبانية .. وغيرهما من اللغات . وقدما أنصفوه فأطلقوا عليه (إمام النحاة) .. كما أنهم بالغوا فى تقدير كتابه فقالوا: (إنه قرآن النحو)، وحسبه ذلك تمجيذاً وتقديراً . ومن هنا يجد الباحث نفسه أمام عمل ضخم حينما يحاول جاهداً أن يضع (سيبويه فى الميزان) . وأشهد أن عبقرية سيبويه تجلت فى كتابه الخالد .. فهو كنز هائل ، ومنبع ثرى ، كأنه بحر زاخر يمد من بعده سبعة أبحر .. فيه من الجوانب الحية النابضة ما يدعو الباحثين إلى التعمق فيها، وهى مازال أبكاراً، عرباً أتراباً .. تنتظر الباحثين فى كثير من الميادين، مثل الأصوات ، واللهجات ، والبلاغة ، والنقد .. بالإضافة إلى النحو والصرف واللغة بوجه عام .. وإليك بعض العناوين لتكون بين يديك بمثابة دليل أو معين .

١ - سيبويه والأصوات : فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة .

٢ - سيبويه واللهجات :

٣ - شواهد سيبويه على محك النقد - (ومن ورأها الشواهد النحوية بوجه عام) .

القضية الكبرى :

هى : موقف سيبويه من ، القراءات القرآنية .. ومنها تتفرع سائر القضايا الأخرى وهى :

١ - قضية المعارضة الصريحة للقراءات عند سيبويه .

٢ - قضية المعارضة الخفية للقراءات عند سيبويه .

٣ - قضية التأويل للآيات القرآنية عند معارضتها للقواعد النحوية :

٤ - قضية موافقة الكتاب للكتاب ، والمراد بها موافقة كتاب سيبويه لكتاب الله العزيز .

مسالك التفكير عند سيبويه :

يخيل لى أن مسالك التفكير عند سيبويه كانت على النحو التالى :

إن سيبويه - رحمه الله - وضع القواعد النحوية فى كفة ، ووضع الآيات القرآنية فى كفة أخرى ، ثم نظر فى الآيات القرآنية فما كان منها موافقا للقواعد البصرية .. تقبله بقبول حسن ، واستشهد به فى الكتاب وتلك هى القضية الرابعة التى أشرنا إليها آنفا (موافقة الكتاب للكتاب) . أما ما تعارض من الآيات مع القواعد النحوية البصرية .. فوقف منه مواقف ثلاثة .. تتجلى فيما يلى :

قسم منها استطاع أن يخضعه للتأويل والتقدير .. ليتفق مع القواعد البصرية

٤ - التداخل بين البلاغة والنحو فى كتاب سيبويه .

٥ - كتاب سيبويه بين النقل والابتكاره .

٦ - القضايا النحوية بين سيبويه والمبرد .

٧ - أخطاء سيبويه فى نظر ابن تيمية .

٨ - مشكلات ابن الضائع فى كتاب سيبويه .

٩ - ما أخذ الأخفش على الكتاب .

١٠ - ظاهرة التأويل فى كتاب سيبويه .

١١ - وأخيرا وليس آخرا (سيبويه والقراءات) .

كل هذه الموضوعات أو جلها وغيرها كثير وكثير ... ما تزال تنتظر البحث .. ومن خلال هذا البحث والدرس العميق نستطيع أن نزن سيبويه وزنا دقيقا ، لنعرف حجمه الطيعى دون تهويل أو تهوين .. ثم نضعه فى المكان اللائق به .. وما أحسبه إلا فى عنان السماء : بين السماكين أو الفرقدين . وكما نود أن نزن سيبويه من جميع النواحي ، ولكن أنى لنا ذلك . والجهد قاصر ، والقضايا متعددة الجوانب . لهذا وذاك سنقصر حديثنا الآن على قضية واحدة ، فقط وهى (موقف سيبويه من القراءات) - وقدما قالوا : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » ، « وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » . وإليك البيان :

وتلك هي القضية الثالثة (قضية التأويل للآيات ، وإخضاعها للقواعد) .

أما الباقي من الآيات المتعارضة للقواعد البصرية .. فإنها تأتي الخضوع للتأويل والتقدير :

وحينما استعصت على سيبويه وقف منها موقف المعارضة القوية ورماها بالضعف ، والقبح والرداءة .. لاشئ إلا لأنها خالفت القواعد البصرية .. وكأن القواعد النحوية مقدسة أكثر من الآيات القرآنية .

ومهما يكن من أمر فإن المعارضة القوية كان لها مظهران عند سيبويه :

المظهر الأول : هي المعارضة الخفية .. وذلك حينما يضع القاعدة النحوية التي تصطدم بالآية اصطداما عنيفا دون أن يذكر نص الآية بصراحة .. وإن كان يذكر كل ما ينطبق عليها ، ويحددها تمام التحديد : وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد يستوى فيها التصريح والتلميح ، والمظهر الآخر هو المعارضة الصريحة .. وذلك عندما يفلت منه الزمام .. فيذكر نص الآية بصراحة ويذكر معها بعض الصفات التي لا تليق .. كما سيأتي بالتفصيل عما قليل : ولعلك تلحظ أن المعارضة الصريحة ، والمعارضة الخفية ،

هما وجهان لعملة واحدة : يتعامل بها سيبويه مع القراءات التي لا تتفق مع المذهب البصري ، ولا يستطيع إخضاعها للتأويل والتقدير يروهما : لأن القضية الأولى والثانية من القضايا الأربع التي تشمل عليها القضية الكبرى ، وهي (موقف سيبويه من القراءات) .

واليك بعض النماذج

أولا : نماذج من المعارضة الصريحة^(١) :

قال تعالى في سورة الخائفة^(٢) : «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» : جاءت القراءة بنصب كلمة (سواء) ويرفعها كذلك ، وكلتاها قراءة سبعة ، ولكن سيبويه يأخذ ما يروق له وهي قراءة الرفع .. ثم يهاجم قراءة النصب ويصفها بالقبح والرداءة^(٣) مع أنها قراءة سبعة كما ترى .. قرأ بها أكثر من قارئ في السبعة . قرأ بها حفص وحجرة والكسائي : وتوجهها في النحو سهل ميسور .. فإنها تعرب حالا ، أو مفعولا ثانيا لنجعلهم ، أي نجعلهم سواء في الحيا وفي الممات .. إلى غير ذلك من الإغراب التي ذكرها العلماء بالتفصيل ،

(١) انظر تفصيل كل ذلك في كتابنا (سبويه والقراءات) ص ١٦ فابعدا ، نوزع دابر المعارف بمصر

(٢) آية : ٢١

(٣) راجع الكتاب ١ : ٢٢٣ ط بلاق

ولكنها لا تتفق مع مذهب سيديويه ..
ولهذا وصفها بالقبح والرداءة سامحه الله .
وهناك آية أخرى ينطبق عليها وصف سيديويه
بالقبح والرداءة ، وهي قوله تعالى : «سواء
العاكف فيه والباد» وهي قرعة سبعية أيضا^(١) .
ولكن سيديويه لا يحفل بالقراءة السبعية أو غيرها
من القراءات . إذا ما اختلفت مع القواعد
النحوية المصرية بالذات .

ومن النماذج أيضا قراءة آية أخرى وصفها
سيديويه بالضعف والقبح معا^(٢) وهي قوله
تعالى : «ثم آتينا موسى الكتاب تماما على
الذى أحسن» بضم كلمة (أحسن) على
أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : تماما
على الذى هو أحسن - مثل هذا جائز
مستساغ ، لا غبار عليه عند غير سيديويه
ومن لفظة لفه من البصريين والمتبصرين ..
أولئك الذين هاجموا هذه القراءة ورموها
بالضعف والقبح والشذوذ .. ومن كان
منهم معتدلا بعض الاعتدال وصفها بالقلة
والندور^(٣)

وإن أردت المزيد من النماذج فعليك
بكتاب (سيديويه والقراءات)^(٤) ففيه بعض
الآيات التي عارضها سيديويه معارضة

صريحة ، ومنها قوله تعالى : «وقالوا
يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين»
في قراءة أبي عمرو بن العلاء بالإبدال -
والمراد إبدال الهمزة ياء في (ائتنا) وكان
حقها أن تبدل واوا في نظر سيديويه ؛ لأن
ما قبلها مضموم .. فلما لم تجئ على القاعدة
البصرية رماها بالضعف - سامحه الله .

ثانيا : من نماذج المعارضة الخفية^(٥) :

(أ) قال تعالى في سورة يس :
«إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن
فيكون»^(٦) قرأ بنصب المضارع (يكون)
قارئان كبيران من القراء السبعة .. هما
الكسائي وابن عامر - وتكررت قراءة
النصب في هذا الحرف من القرآن حين
جاء في سورة النحل كذلك عندهما معا -
كما أن ابن عامر قرأ بالنصب في جميع
المواضع الأخرى التي ورد فيها هذا الحرف
من القرآن الكريم ، باستثناء موضعين اثنين
ومع هذه الكثرة الكاثرة من الآيات القرآنية
المنصوبة .. ومع التوثيق الكامل لقراءة
الكسائي وابن عامر فإن سيديويه رحمه الله
يقرر ضعف النصب . هذه الحال^(٧) .

(١) راجع كتاب (سيديويه والقراءات) ص ٢٣

(٢) انظر الكتاب ١ - ٢٧٠ ط بولاق

(٣) راجع شراح الألفية في باب الموصول عند قول ابن مالك :

(وبعضهم أعرب مطلقا وفي ... ذا الحذف أيا غير أي يقتضي)

(أن يستعمل وصل وإن لم يستعمل ... فالحذف زور وأبوا أن يختزل)

(٤) ص ٢٥ فا بعدها . (٥) راجع تفصيل كل ذلك في كتاب (سيديويه والقراءات) ص ٤٦ فا بعدها

(٦) آية - ٨٢ (٧) راجع الكتاب ١ - ٤٢٣ ط بولاق

لا شيء إلا لأنها لا تتفق مع القاعدة النحوية التي وضعوها بأيديهم في مصنع التقعيد - وخلاصة القاعدة عندهم أن الفعل المضارع لا ينصب بعد الفاء إلا إذا كان جواباً .
هذه هي القاعدة الناقصة التي أحاطوها بالتقديس أكثر من القراءات القرآنية المحكمة؛ ماذا عليهم لو نسفوا هذه القاعدة من أساسها . . و على الأقل يعدلونها ويوسعونها بحيث تشمل هذه القراءات السبعة المتعددة . . ويجيزون النصب - دون ضعف - كما يجيزون الرفع وإن كان الرفع أكثر !

ماذا على شيخنا سيديوه - رحمه الله - لو فعل ذلك . . وأغنى نفسه من الحرج بوضع قاعدة نحوية تصطدم بالقرآن الكريم في أعلى قراءاته . . وهى القراءة السبعة ؟ ليت فعل ... ولكنه لم يفعل مع الأسف الشديد .

(ب) ومن ذاك ^(١) قوله تعالى : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » ^(٢) وقوله جل شأنه : « أولئك هم خير البرية » ^(٣)

قرأ نافع بتحقيق الهمزة في الكلمتين معا (النبي والبرية) وهو من القراء السبعة وبه بدأ ابن مجاهد حيث كانت قراءته أوثق القراءات

في نظره لأنه قرأ على سبعين من التابعين ، ولكن سيديوه - رحمه الله - لا يبالي بذلك ويصف هذه القراءة بالقالة والرداءة ^(٤) .
هذا إلى أن تحقيق الهمزة وتخفيفها كلاهما لهجة واردة عن العرب الفصحاء . . وأكثر من هذا أن التحقيق أدخل في باب اللغة من التخفيف ، وفي هذا يقول العلامة الرضى : « والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف ، والتخفيف استحسان » .

وإذا لم يكن هذا ولاذاك فالقرآن وحده الحجة البالغة على جميع اللغات . . والقراءة سنة متبعة . . ولولا ذلك ما تكلفت

قريش نبر الهمزة وتحققها في القرآن الكريم ، وآية ذلك أن الإمام علياً كرم الله وجهه قال : « نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ماهمنا » ^(٥) فانظر إلى الإمام على يقرر نزول الوحي بقراءة الهمزة ويخضع لها مع أنها تخالف لهجته الخاصة . . ثم انظر إلى سيديوه يصفها بالرداءة مع أنه يعلم اليقين أنها واردة وأن القراءة سنة متبعة هذه واحدة . وأخرى سلفت . وهناك أخريات . . وأخريات مما لا أطيل بذكره الآن ^(٦)

(١) انظر ص ٧٠ فما بعدها من كتاب (سيديوه والقراءات) (٢) التحريم

(٣) سورة البينة آية رقم (٧) وقبلها جاءت كلمة (البرية) كذلك في آية رقم (٦) من نفس السورة .

(٤) انظر الكتاب ٢ - ١٧٠ - ٢٠٣ ط بولاق (٥) راجع شرح الشافية ٣ - ٣٢

(٦) راجع المبحث "باني" كونه ابتداء من ص ٤٠ فما بعدها من كتاب (سيديوه والقراءات) .

ومنها (تاءات البزى) المشهورة عند جميع القراء ، وعددها واحد وثلاثون موضعا في القرآن الكريم ، وقد تعرض سيبويه لبعضها فمنعها باننا مع أنها جميعا من القراءات السبعة المحكمة (١) .

ثالثا : من نماذج التأويل (٢)

(أ) قال تعالى في سورة النور (٣) : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . الإعراب الفطرى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن تعرب (الزانية) مبتدأ وخبره جملة (فاجلدوا) . وبه قال بعض العلماء الأجلاء من أمثال المبرد والزجاج والزمخشري وأبى زكريا الفراء :

غير أن سيبويه - رحمه الله - لجأ إلى التأويل البعيد حينما وقفت له الصنعة بالمرصاد فقال : إن خبر (الزانية) محذوف تقديره (فيما يتلى عليك الزانية والزاني - أو فيما يتلى عليكم حكم الزانية والزاني) . أما جملة (فاجلدوا) فأعربها مستأنفة . ولا يصح أن تكون خبرا في نظره لا لشيء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية البصرية :

فانظر إليه رحمه الله : كيف تتحكم فيه الصنعة فيرفض الإعراب الذى يساير الفطرة كما يساير طبيعة اللغة العربية السمحة . فإذا عليه لو أجاز هذا الإعراب كما أجازها العلماء الأجلاء من المدارس النحوية الكبرى جميعا ؟ وما الذى يضيره أو يضير اللغة العربية حينما يوسع هذه القاعدة الناقصة . فيجعلها تشمل هذا الخبر كما تشمل غيره من الأخبار ؟ لو فعل ذلك لأراح نفسه وأراح الناس من بعده . من أمثال هذا التأويل المتكلف ، وذلك التقدير الذى يفسد الذوق العربى السليم . ولكن هيات أن يمس القاعدة المقدسة مهما كانت مخالفة للكثير من الآيات القرآنية المماثلة (٤) . ومن الشعر العربى الفصيح (٥)

(ب) ومن التأويل المتكلف ما جاء في قوله : قوله تعالى : « إذا السماء انشقت » - وقوله جل شأنه : « وإن أحد من المشركين استجارك » (٦) إذا أردت الفطرة السليمة في الإعراب واستلهمت الحسن اللغوي المزهى أعربت كلمة (السماء) مبتدأ وما بعدها خبر لها - وكذلك الحال في الآية الثانية . وبه قال كثير من

(٢) راجع ص ١٧٠ فما بعدها من المصدر السابق .

(١) انظر ص ٥٣ فما بعدها من نفس المصدر .

(٣) آية رقم ٢

(٤) من الآيات المماثلة قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » المائدة ٣٨ - وقوله عز وجل : « والَّذَانِ

يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَقْوَهما » النساء - ١٦ .

(٥) من ذلك قال الشاعر .

وأكرموا الحبيب خلد كاهيا

وقالته خولان فانكح فتاتهم

(٦) للتوبة : آية .

والآن آن لنا أن نقض الحديث اقتضاباً،
ونكشف عن ذكر النماذج للقضية الرابعة
وهي (موافقة الكتاب للكتاب) .. ذلك أن
معظم الآيات الواردة (٢) في كتاب سيبويه
من هذا القبيل .. فلا تحتاج إلى بحث أو
تنقيب .. ومن أراد شيئاً من النماذج المختارة
فعلية بالمبحث الرابع من كتاب (سيبويه
والقراءات) (٣).

أثر سيبويه في المخالفين :

وكان من الطبيعي أن يتأثر النحاة بما جاء
في كتاب سيبويه .. وأن يقتدوا به (حذوك
الكف بالكف) ... إلا من رحم ربك .. وقليل
ما هم .. ولنا مع هؤلاء النحاة حديث يطول
نرجئه إلى حين .. غير أننا نشير إشارة
عابرة إلى (المزايدات) التي زادوها على
سيبويه في قراءة سبعة محكمية (٤) وهي
قراءة حمزة في سورة النساء: «واتقوا الله
الذي تساءلون به والأرحام» بخفض
الأرحام، حيث وصفوها بالقبح والضعف
واللحن والخطأ .. وأكثر من هذا وذاك أنهم
حرّموا القراءة بها تحريماً قاطعاً .. ولهذا قال
المبرد: «لو أني صليت خلف إمام يقرؤها
لقطعت صلاتي وحملت نعلي ومضيت» .

العلماء الاجلاء (١) ولكن سيبويه — رحمه
الله — يرفض هذا الإعراب الفطري الجميل
ويلجأ إلى التأويل والتقدير، ويتبعه في ذلك
سائر البصريين والمتبصرين إلى يومنا هذا في
هذا العصر الحديث .. ويقولون : إن كلمة
(السماء) فاعل لفعل محذوف تقديره (انشقت)
وكذلك كلمة (أحد) فاعل لفعل محذوف
تقديره (استجارك) .. وبناء على هذا وذاك

يكون التقدير في الآيتين هكذا : — (انشقت
السماء انشقت) — (وإن استجارك أحد من
المشركين استجار) . وأكثر الظن أننا لسنا
بحاجة إلى التعقيب على هذا التقدير المتكلف
ذلك الذي يخرج الآية الكريمة عن سماحتها
وسلاستها .. ويشوه الأسلوب القرآني الرفيع .

وبلاحظ أن باب التأويل داخل في التعارض
مع القواعد .. ولكن سيبويه — رحمه الله —
يلوئى أعناق الآيات .. إلى أن يخضعها
للقواعد البصرية . أما القسم الذي لا يقبل
الخضوع للتأويل فإنه يقف منه موقف
المعارضة الصريحة ، أو المعارضة الخفية — كما
سلف به البيان — غير أن الكل داخل في باب
التعارض مع القواعد — كما ترى .

(١) من أمثال الأعمش وأما ذكرها القراء والكوفيين بوجه عام .

(٢) أحصاها بعض الباحثين فوصل بها إلى (٣٧٢) آية ، وهي تمثل جميع القضايا الأربع التي هاجمناها في كتابنا

(سيبويه والقراءات) (٣) ص ١٨١ فا بعدها . وانظر الكتاب ١ / ٣٧ فا بعدها ١ / ٤٦ فا بعدها و

٢ / ١٦٥ ، ١٢٠ فا بعدها وغيرها كثير وكثير . طبع ببولاق .

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (الدفاع عن القرآن) فوليح دار المعارف بمصر .

لا لشيء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية
الناقصة .. ماذا عليهم لو عدلوا هذه القاعدة
كما عدلها الإمام التقي الورع الحصف .. ابن
مالك الحياتي حيث قال في الألفية المشهورة :

وعود خافض لدى عطف على
ضمير خفض لازما قد جملا

وليس عندي لازما إذ قد أتى
في النظم والنثر الصحيح مثبتا

حياك الله يا ابن مالك .. حياك الله أيها الإمام
العظيم .. حياك الله أيها النحوي الغيور على
القرآن الكريم ، وقراءاته السبعية المحكمة .

هذا إلى أنني لا أتهم هؤلاء النحاة ..
كما أنني لا أتهم سيويوه في دين أو خلق .. فقد
كان رحمه الله مثالا عاليا لهذا وذاك .. ولكنها
العصية المذهبية .. . والتمسك بالقواعد
النحوية الناقصة .. وكان جديرا به ، وبغيره
من النحاة الأوائل أن يتخذوا القرآن الكريم
منبعهم الذي لا يغيض ، ومصدرهم الأول
في كل تعيد .. ومن هنا كانت دعوتنا
الحارة لا تتأخذ الخطوات الحادة في إخراج
(النحو القرآني) .. وأكرر وأضغط في التكرار
على (النحو القرآني)

نداء ورجاء للإصلاح نحونا الجميل :

لعل لا أكون متعصبا لتخصصي حين
أقول : إن النحو العربي من ألد العلوم

وأجملها .. ولكن تشويه بعض الشوايب
وليتنا نستطيع أن نخلصه من هذه الشوايب
الدخيلة عليه ، المتطفلة على موائده الشهية
الذيذه الممتعة .. . وتتمثل هذه الشوايب
في آثار الفلسفة الإغريقية ظنا منهم
أن النحو منطقي دائما وأبدا .. ونسوا -
أوتناسوا - أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تخضع
دائما للمنطق العقلي .. وإنما لها منطقها الخاص
الذي قد يتفق مع المنطق العقلي ، وقد يختلف
معه في بعض الأحيان (١)

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى شيء
من الإصلاح المتعقل .. وإذا كان الإصلاح
الحدري^(٢) للنحو العربي قد عز علينا .. فإن
يعز علينا - مجتمعين - مثل هذا الإصلاح
الجزئي .. ذلك الذي يتمثل في (حركة
التنقية والانتقاء) بحيث نبدأ بتنقية النحو
من جميع الشوايب الفلسفية التي علقت
به .. ثم نقوم بحركة الانتقاء ، واختيار
أيسر الآراء على الدارسين والمتعلمين ..
شريطة أن يكون هذا التيسير قائما على أساس
من الأصالة في اختيار الآراء من أقوال
النحاة القدماء دون تعصب لشخص ..
أو مذهب على مذهب .. ونكتفي بهذه الإشارة
الخاطفة إلى الإصلاح .

والإصلاح لدينا حديث طويل نرجئه
إلى حين ، ولكن لنا بعض التوصيات .. وإليك
البيان :

(١) باب (عطف النسق)

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (أبو زكريا الفراء) ص ٤٠٣ فما بعدها - توزيع دار المعارف بمصر .

(٣) راجع ص ٤٠٩ فما بعدها من المصدر السابق بعنوان (المنهج اللغوي السليم)

التوصيات التي يهدف إليها هذا
البحث تتركز فيما يأتي :

١ - الاقتناع الحقيقي بأن القداسة للشواهد
القرآنية .. وليست للقواعد النحوية .
ويرتب على ذلك :

٢ - تعديل القواعد على أساس الوارد
من الشواهد .

٣ - الإصلاح الجزئي .. إذا تعذر الإصلاح
الكلي الجذري^(١)

٤ - تضافر الجهود لإخراج (النحو
القرآني) وتعميمه في جميع البلاد العربية
والإسلامية ، والاستعانة في ذلك بكل
الوسائل المتاحة علميا ودينيا واجتماعيا ..
وتتمثل هذه الوسائل فيما يلي :

(١) في المجامع اللغوية المتعددة .

(ب) وفي الجامعات والمعاهد العليا تلك
التي تعنى بالدراسات العربية
والإسلامية .

(ج) وفي جامعة الدول العربية لما لها من
صلات .

(د) وفي المؤتمرات الإسلامية ومراكزها
الفعالة .

(هـ) وفي وسائل الإعلام باختلاف
ألوانها وأنشطتها .

(١) نفس المصدر .

(و) وأخيرا الاستعانة بالحكومات

الإسلامية المؤمنة لتقرير هذا النحو
في مراحل التعليم المختلفة؛ ليتسنى له
البقاء والخلود .. بعد الظهور إلى
حيز الوجود.. وإلا أصبح حبرا على
ورق ، وضاع في غمار الحياة ..
وكأنه صبيحة في واد أو نفخة في
رُمد ، ومهما يكن من شيء
فلئنني راض عن النتائج.. حيث إنني
شاركت ونهت .. ومازلت أنادي
وأصيح.. ألاهل بلغت اللهم فاشهد.

(وبعد) فأود أن تحكموا بيني وبين
سيبويه العظيم .. هل ظلمته .. أو تجنيت
عليه ؟

ما أظن هذا ولا ذاك .. فتلك نتيجة
البحث المنهجي الصرف .. وقد حكمنا
عليه بما رأيناه واستخرجناه من كتابه هو
.. وحملناه أوزار ما صنعت يده - إن
جاز لنا أن نحمل الباحثين المجتهدين شيئا من
الأوزار - وقدما قالوا في الأمثال العريقة:
«يداك أوكتا وفوك نفخ» .

على أنني لم يكن من أهدافي قط أن أنال
من شيخنا الكبير سيبويه إمام النحاة ..
أو أغض من شأنه في قليل أو كثير .. بل على
العكس - كما يقول أحد الزملاء الفضلاء
العقلاء - أنني بذلك دافعت عن سيبويه
دفاعا مجيدا .. حيث أبعدت عنه شبهة الزندقة
أو الإلحاد .. ونسبت هذا الصنيع في
المعارضات إلى النزعة النحوية من العصبيية

المذهبية، والتمسك بالقواعد إلى حد كبير :
والهدف الأساسي عندي هو التنبيه إلى بعض
الثغرات التي نفذ منها الفساد إلى النحو العربي
ثم العمل على سد هذه الثغرات .. ومحاولة
الإصلاح بالقدر المستطاع .. ونتمنى أن
يتحقق شيء من ذلك . وألا نقول مقالة
الشاعر الأول :

« وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟! »
والآن بعد مئات السنين .. بعد ألف
سنة أو تزيد .. يفكر العالم في تكريم سيبويه
بإقامة مهرجان له في إيران .. وإذا أردنا
أن نكرمهم حق التكريم ينبغي علينا أن نعكف
على كتابه الخالد، وندرسه دراسة جادة واهية
ناضجة متعمقة .. ونستخرج منه الكنوز
الدفينة التي احتواها .. ثم ننظر إليها في ضوء
مناهج البحث الحديث .. ونقف منها موقف
الباحث لا موقف المناظر .. ولفرق كبير
كبير بين الموقفين كما تعلمون .

هكذا يكون تكريم سيبويه العملاق ..
وهكذا يكون الانتفاع بعلمه الغزير .. في
كتابته الفريد ، ولا يتأتى ذلك إلا بالتعمق
العميق في دراسة الكتاب ..

ومعظم الباحثين في عصرنا الحديث
يهابونه هيبة شديدة ، ولا يكادون يقتربون منه
ولهذا أهمل أو كاد في كثير من الجامعات
الحديثة :

أما في العصر القديم فإنهم كانوا يقدرونه
بطريقتهم الخاصة .. ومن بينها الحفاظ
والاستظهار، على نحو ما كان يفعل القدماء
في المغرب والأندلس .. وعلى رأسهم حمدون
النحوي (١) ذلك الذي قالوا عنه : إنه أول من
حفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب .. من
الغلاف إلى الغلاف ، أو من الألف إلى الياء .
كما يقولون .. فهنيئاً له هذه الأولوية .. وإن
كنا ننظر إليها بنظر آخر، ونقول كما قال
بعض الحكماء : « إن هذا العمل الشاق لم
يصف إلى النحو جديداً أكثر من أنه زاد
نسخة من نسخ الكتاب .. فأصبح (حمدون)
كتاباً يمشى على قدمين » .

وفي النهاية : أعود فأقول : إننا نقدر
سيبويه كل التقدير .. ولكننا لا نقدره
أي تقديس . ولفرق كبير بين التقدير والتقديس .
أحمد مكي الأنصاري